اسم الدرس : تفسير سورة الكهف (٢) | الآيات [٩ : ٢٦]

تصنيف الدرس : مجلس التفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

أهلًا بكم في المجلس الثاني من مجالس سورة الكهف. بفضل الله تكلمنا في المجلس الماضي عن: مقدمة، ومدخل، وموقع السورة، والقصص العام الذي في السورة.

وتكلمنا عن ما أسميناه مميزات أو كما تذكرون -لمن سمع الدرس السابق- خواص سورة الكهف، وقلنا إن هذا المصطلح قد يكون به بعض الغرابة، لكن ذكرنا بعض الكتب التي تكلمت عن خواص سور القرآن، وتكلمت عن هذا بالتفصيل في درس "منهجية مقترحة لمعايشة سور القرآن الكريم"، كيف نحاول أن نصل إلى خواص السورة القرآنية؟ بمعنى إذا أردت أن أعرف ما هي خواص سورة يس مثلًا، مثلًا أنا أحب سورة الرحمن، ما هي خواص السورة؟ ما هي الطرق التي أصل بها إلى خواص هذه السورة؟

تكلمنا بفضل الله -سبحانه وتعالى- في المرة الماضية عن هذه المقدمة، كانت طويلة بعض الشيء ووجد بعض الناس فيها صعوبات، وهذه فرصة أن أتكلم في هذه النقطة، حيث تأتي التساؤلات دائمًا: لماذا الانتقال إلى اللغة العربية؟ أو الإصرار على الإحالات إلى دروس سابقة أو إلى كتب؟ وبعض الناس يقول: هذا الأمر جيد واستمر في ذلك، والبعض يريد اللغة العامية أكثر وبدون إحالات على كتب وبدون إشارات إلى المفسرين أو أصحاب الأقوال.

حقيقة إننا نحاول قدر المستطاع أن نغطي أكبر شريحة تستفيد؛ فأرجو ألا يجعل أحد حاجزًا نفسيًا بينه وبين الاستفادة من النص القرآني، فما نحن إلا -سواء هذا الدرس أو الكتب- جسور تربط الإنسان بالنص القرآني.

فبعد الاستماع لهذا الدرس ولغيره أو القراءة، فإن الإنسان يقوم ويصلي قيام الليل بالسورة، وإن شاء الله يُفتح له على قدر احتياجه هو في كتاب الله -سبحانه وتعالى-.

❖ الرؤية التي تقدمها سورة الكهف:

حسنًا، لقد توقفنا في المجلس الماضي -أظن بعدما تكلمنا عن الآية الثامنة- عند قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾[الكهف ٧] هذه الآية السابعة.

وبعدها قلنا: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف ٨]، وذكرنا المقارنة بين كلمة زينة وصعيدًا جرزًا، الانتقال المفاجئ بين قمة الزينة في الأرض إلى الصعيد الجرز، هذه الرؤية هي التي تقدمها نظارة سورة الكهف، لأن نظارة سورة الكهف أو سورة الكهف تعطينا معايير، تعطينا قيم حقيقية، تعطينا نظارة صالحة لرؤية الأشياء على حقيقتها.

فالذي يرى الدجال لن ينبهر به؛ فسورة الكهف تساعدنا على رؤية الدجال وهو أعظم فتنة على حقيقته، فما بالكم بما دونه من الفتن!

إذًا بفضل الله –سبحانه وتعالى– سورة الكهف تعطينا معايير وقيم ورؤية وبصيرة نرى بها الأشياء على حقيقتها، وهذا ما حدث بفضل الله –سبحانه وتعالى– مع أصحاب الكهف حيث رأوا هذه الأحداث على حقيقتها؛ فاستطاعوا أن يأخذوا القرارات الصحيحة.

قلنا إن كلمة "الزينة" جاءت ثلاث مرات في السورة، وكلمة "الرَشَد" جاءت أربع مرات، وقلنا إن من العجيب أن الآية العاشرة التي ورد الحديث بالتوقف عندها في القراءة من سورة الكهف حينما تقرأ على الدجال انتهت بهذه الكلمة، كلمة "الرشد". والرشد –ولقد نسيت أن أذكر هذا لكم في المرة الماضية– بعدما بحثت في كتب اللغة، دكتور محمد حسن جبل في كتابه "المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم" كان قد تكلم أن الرشد لا يقتصر على الاستقامة فقط، قال: الاستقامة مع تصلبٍ فيها؛ وأورد معاني أن الرشد أحيانًا يعطي معنى الصخور أو الجبال، وأشار إلى معانٍ أخرى –لمن أراد الاستزادة–، لكن قال: التصلب في الاستقامة.

أنا كنت أتصور في الرشد معنى –من القراءة في الكتب اللغوية– غير مقتصر على الاستقامة؛ إنما رؤية الأشياء بصورة حقيقية لا يُفتن بها الإنسان كما قلنا ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[النساء ٦] فالرشيد يتعامل مع المال، ومع الفتنة بحكمة. فهو هنا يضيف معنى آخر وهو التصلب في الاستقامة، وهذا متناسب مع مواقف مجلس اليوم بل متناسب مع مواقف السورة كلها، مع قصص السورة كلها، حيث إن الإنسان لا يصل إلى الرشد فحسب بل يصل ويتصلب ويتمسك بهذا الرشد الذي وصل إليه مهما كانت الفتن المحيطة.

❖ قصة أصحاب الكهف:

نبدأ درس اليوم من الآية التاسعة من قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾[الكهف ٩]، هنا بدأت المقدمة لقصة أصحاب الكهف، إذًا مجلس اليوم سنتكلم إن شاء الله عن مجمل آيات أصحاب الكهف.

سأل بعض الناس كذلك إذا كنّا سنُكمل بصورة إجمالية أم بصورة تحليلية؟ سأحاول التوسط بأن أجعل الشرح وسطًا بين الإجمال والتحليل، وإن كنت أميل للإجمالي أكثر فسوف أمر على التحليلي سريعًا، ولن تأخذ سورة الكهف كما هي مجالس الأنعام ما يقارب العشرين مجلسًا، إن شاء الله المجالس كلها لن تزيد عن عشر مجالس أو أقل إن شاء الله.

نبدأ، وأريدك أن تعيش معي وأن تُركز، وهذا الذي يقدمه القرآن –وتكلمنا عنه قبل ذلك كثيرًا– مسألة معايشة القصة. هنا ستبدأ الأحداث، بدأت القصة بصورة عجيبة جدًا، بطريقة عجيبة حيث بدأت:

- أولًا بالآية التي سنشرحها الآن وكانت مدخلًا مبهرًا.
- ثم ملخص للقصة في ثلاث آيات، ملخص للقصة كلها في ثلاث آيات كنوع من التشويق، مثلما تشاهد مقطع فيديو –ولله المثل الأعلى مع الفارق في التشبيه– فيبدأ بـ (برومو)/ مقدمة فيها الأحداث المثيرة مجمعة من الذي سوف تراه في خلال الساعة؛ فهذه المقدمة تجذبك، أو كما في الأبحاث العلمية مثل الـ abstract مثلًا وهو المختصر الموجود في بداية البحث. وهذا حصل في القصة هنا، جاءت ثلاث آيات كتلخيص سريع لأهم الأحداث التي ستقابلك في القصة.
- ثم انتقال تفصيلي.

فآية ثم مختصر ثم تفصيل، فأريدك أن تعايش هذه الأحداث. بدأت القصة بالآية المقدمة قبل الثلاث آيات الاختصار؛ بمعنى عندنا آية مدخل، وبعدها ثلاث آيات اختصار، ثم بعدها تفصيل لمجمل القصص القرآني. لماذا نقول ذلك؟ ولماذا نريد التركيز للغاية في كل كلمة؟ أنا طبعًا لا أتذكر في أي درس تحديدًا قلت هذا الكلام من قبل، لكن في العموم طريقة طرح القصص في القرآن تختلف عن طريقة القصص البشري، وأظن كان هذا في سورة يوسف.

عندما يحكي أحدهم قصة من الممكن أن يظل يحكي قصصًا ليست ذات أهمية، وتفاصيل وأحداث، ذهبت وخرجت وأوقفت السيارة وركبت.. ويحكي أحداثًا ليس لها قيمة، بل أحيانًا قد تصاب بالملل قبل

أن يصل الإنسان الذي يقص القصة إلي الحدث المهم الذي بدأت عنده القصة. أما هنا نجد أن أحداث القرآن –وهذا مطرد– تبدأ من مواطن عجيبة، تشد الانتباه.

مثلًا في سورة القلم –ربنا ييسر إن شاء الله ونشرحها بعد سورة الكهف–: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾[القلم ١٧]، انتبه من أين بدأت: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾، بدأت هذه القصة كلها بلحظة ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾، ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، لكن ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ هذه قبلها قصة؛ فتقرأ في كتب التفاسير، وكان هناك رجل كبير، وكان طيبًا، وكان يوزع الميراث الخاص به بطريقة معينة، والمال، ثم مات.. قصة طويلة قبل هذه البداية، لكن كانت هذه هي لحظة التغيير، إن شاء الله سيتضح هذا عندما نحكي.

هنا أيضًا سنجد أن المقدمة عجيبة جدًا، وسنرى كيف أن القرآن يركز على قضايا هامة جدًا، هامة بالنسبة لمن؟ بمعنى عندما يقول أحدهم لي: لكن أنا لا أستشعر أنها هامة، فالمقصود أنها هامة لمراد القرآن، لِما نَزَل له القرآن، حيث إن القرآن نَزَل لقضايا معينة، القرآن لم ينزل لكي يشتت الناس، نزل القرآن ليقود الناس، ليهدي الناس في طريقها إلى الله –سبحانه وتعالى–، فبالتالي عندما يركز القرآن على قضايا فهذه هي القضايا المحورية المطلوب منّا الخروج بها من هذه القصة.

حسنًا، هيا بنا، اربطوا الأحزمة وتعالوا بنا ننطلق.

❖آية مقدمة:

بدأت الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾[الكهف ٩] إذًا هذه أول كلمة تقابلك في المقدمة.

حاليًا أريدك أن تتخيل ثلاثة مستويات: آية مقدمة، ثم ثلاث آيات اختصار، ثم تحليل. وتشبيهًا لذلك، مثلما تكون مستعدًا وسأحكي لك قصة، ثم أقول لك: انتظر انتظر نسيت أن أخبرك بشيء ما، فتقول لي: أخبرني أنا متشوق وأريد أن أسمع القصة.

وانتبه للأحداث؛ الناس يسألون، قريش يسألون، واليهود، وفي رواية أن النصارى واليهود يريدون أن يوقعوا النبي –صلى الله عليه وسلم، هل سيقول القصة بطريقة صحيحة أم خاطئة؟ والمشركون مرتابون. والذي يقرأ في التاريخ، يجد الإمام أبو الحسن الندوي يتكلم عنه في كتابه في شرح سورة الكهف والإمام القاسمي نقل من كتب النصارى وغيره، بأن هذه كانت قصة تحوم حولها خرافات كثيرة، وكانت قصة

مشهورة في الأناجيل باسم "الشهداء السبعة"، أو أعني في تاريخ النصارى، الشهداء السبعة، وكان يُنسج حولها أساطير كثيرة.

فالقصة من الأصل حولها خيالات كثيرة؛ لذلك القصة عند بداية الكلام التفصيلي -حيث ذكرنا أن عندنا ثلاثة مستويات: مقدمة، مجمل مختصر، التحليل- نجد أول آية في التحليل: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[الكهف ١٣]، نحن سنخبرك بالكلام الصحيح البعيد عن الخرافات وبعيد عن الأحداث غير الحقيقية.

وفي اللحظة التي أوشكت فيها القصة أن تبدأ، يُقال لك: انتظر قليلاً قبل أن أحكي لك القصة! وأنت الذي تنتظرها مستغربًا، والناس يتناقلون عنها الأحاديث كلٌ يتحدث بما سَمِع، من سمع بأنهم ماتوا، وآخر يقول سمعت أنهم ظلوا ألف سنة، وأحدهم يقول: لا، ليس ألفًا بل خمسمائة، والنقاشات تستمر...

- فيُقال لك: انتظر، كل الذي ستسمعه في تفاصيل القصة من الأحداث العجيبة، ومن القضايا الغريبة، كل الذي سوف أحكيه لك، هذا لا شيء في آيات ربنا -سبحانه وتعالى-، هذا أمر عادي جدًا.

- كيف؟! أنا أنتظر متحمسًا، وأريد أن أسمع قصة غريبة وأريد أن أسمع أحداثًا مخيفة، وأريد أن أقول مع كل حدث سبحان الله! فعندما ناموا في الكهف أقول: سبحان الله! وعندما أحياهم الله أقول: سبحان الله!

- بل أريد أن أقول لك: لا، من الأصل يفترض أن تقول مع كل طلعة للشمس: سبحان الله! مع كل جنين يولد تقول: سبحان الله! مع كل بذرة توضع في الأرض تقول: سبحان الله! مع كل نَفَسْ يدخل الصدر ويخرج تقول: سبحان الله! نحن الذين نهتم بالغرائب. فأول آية تقول لك: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾[الكهف ٩]، الذين سأحدثك عنهم ﴿وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾، هل أنت متصور أن هذه الآيات -من ضمن الآيات- عجيبة؟ أبدًا، كل الآيات عجيبة، وهي أيضًا عجيبة، لكنها من ضمن هذه الآيات، فليست بأعجب من طلوع الشمس ولا من غروبها، ولا من خروج النبتة، ولا من خروج الجنين، ولا من ترتيب الأحداث، ولا من تنوع النباتات، ولا من أرزاق الحيوانات، ليست بأعجب من كل هذا.

فلا أريدك أن تنشغل –أنا سأقص عليك القصة وأخبرك بالتفاصيل، وستسبح الله وتنبهر بقدرة الله– لكن لا أريد لعقليتك أن تكون العقلية التي دائمًا ما تهتم بالغرائب فحسب، وبالأعاجيب فحسب، لا تحصر على قلبك وعقلك في قول سبحان الله في العجائب فحسب، وإلا فأنت تُضيق وتُحجر واسعًا. إن من الطبيعي طالما أنك تسير في هذا الكون أن تقول: سبحان الله! ﴿مَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾[الأنعام ٥٩] فلا تجعل عقليتك من العقليات التي تنبهر فقط بالغرائب والعجائب.

* خذوا هذه القاعدة التي تقدمها الآية الأولى: كثرة الاهتمام بالعجائب والغرائب تغطي على رؤية آيات الله –سبحانه وتعالى–.

لذلك لما حدثت ولادة عيسى –عليه السلام– من غير أب، تعجب الناس وقالوا إنه إله! وهذا موجود في بداية سورة الكهف ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾[الكهف ٥]. ما العجيب في هذا؟ سيدنا آدم خلق من غير أب ولا أم، المخلوق الطبيعي أصلاً –الإنسان– يأتي من نطفة، أليس ذلك عجيبًا أيضًا؟! تتعجبون من خلق عيسى من غير أب وقلتم: لا بد أنه إله، أليس خلق الإنسان من الأب والأم عجيبًا؟!

فتجنبوا العقلية التي تهتم بالغرائب فحسب، وهذه مقدمة عجيبة للسورة، كأنها تهيئة لتُحدث نوعًا من التوازن، سأقص عليك القصة وما فيها من أعاجيب، وسأخبرك بعد ذلك أن كل ما في القصة هو من آيات الله، وعجائب من عجائب قدرة الله –عز وجل–، لكن لا تنشغل بمثل هذا فقط.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ﴾ حسب غالبًا في القرآن تأتي للظن الخاطئ، ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف ٩] أبدًا! ليست بأعجب الآيات، بل هي ضمن الآيات، هي آية عجيبة ضمن آيات كثيرة –مثلما يقول الشيخ السعدي رحمه الله– إنها آية، لا أحد ينكر ذلك، ولكنها ضمن الآيات العجيبة الأخرى. وهناك خلاف في هذه الآية ومعانيها، لكن نأخذ بالمعنى الأشهر الذي ذكرته لكم. ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ﴾ وصف الصحبة هنا؛ أي أنهم كانوا ملازمين للكهف.

﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ هذه الكلمة ذُكرت مرة واحدة فقط في القصة؛ ولذلك أحدثت خلافًا طويلًا بين المفسرين، بل يُروى في أثر عن ابن عباس رضي الله عنه أن هناك بعض الكلمات في القرآن لا يُعلم معناها منها: ﴿ٱلرَّقِيمِ﴾.

- إذا أردنا أن نفسر القرآن بالقرآن وهذا مما يشير إليه الطبري، واهتم به من المتقدمين الإمام ابن زيد قال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾[1] في سورة المطففين، مرقوم مفعول، ورقيم فعيل تأتي بمعنى مفعول، قالوا إن الرقيم الشيء المرقوم والرقم من الصحائف.
- وهناك من قالوا الرقيم هو الكلب.
- ومن قالوا هو الكهف.
- وهناك من قال إنه حجر مكتوب على باب الكهف.

وأنا أميل –والله أعلى وأعلم– إلى أن الرقيم شيء مكتوب، حسنًا.. ماذا كُتب؟ هنا أيضًا اختلفت أقوال العلماء، اختلفوا هل هو الكلب، أم الكهف، أم حجر مكتوب، ثم اختلفوا فيما كُتب عليه:

- فمنهم من قال إنها صحيفة مكتوب عليها أسماؤهم.
- أو كتبوا عليها قصتهم وجعلوه بجوارهم.
- وهناك قول عجيب جدًا وقفت عليه –وأظن مال إليه الإمام ابن عاشور والإمام الندوي– أنه كان كتاب هداية أو بقايا صحف كتبوها من بقايا الكتب السابقة، فكان كتاب تعبد. لو أخذنا بهذا القول، نجد صحبة صالحة، في مكان منعزل، مع صحيفة تحمل بقايا الكتب السابقة، هكذا تمت بيئة الإيمان.ومن استفاض في هذا المعنى هو أبو الحسن الندوي في الكتاب الذي أشرت إليه في الحلقة الماضية.

لكن كما قلت سيظل الخلاف، فليس هناك قطعٌ بذلك، لا أحد يستطيع أن يُقسم على هذا، فالأمر فيه خلاف، لكن ذكرت لكم كيف وصلنا من كلمة الرقيم ومرقوم وصحيفة إلى هذه المعاني، وهناك إشارة جميلة؛ فالصحيفة لو ذكرها الله –عز وجل– لمجرد أنها كُتب عليها الأسماء، فالقرآن في الأصل لم يهتم بذكر أسمائهم؛ فوصلوا بالاستنتاجات مع بعض الآثار إلى أن الراجح أنه كتاب فيه بقايا الكتب السابقة.

﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾[الكهف ٩]، ليست بأعجب آيات الله؛ بل كل آيات الله عجيبة؛ فلا تتوقفوا عن التسبيح والتهليل والتحميد له –سبحانه وتعالى–.

[1] ذكرت هذه الآية في [المطففين ٩] و[المطففين ٢٠].

❖ المجمل المختصر:

حسنًا، نبدأ القصة، هذه كانت مقدمة، تهيئة لكي لا تنشغل بالغرائب التي فيها عن بقية العجائب.

﴿إِذْ﴾ أي: واذكر هذه اللحظة؛ مثلما قلنا في سورة القلم ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[القلم ١٧]، وأيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾[آل عمران ١٥٢]، فدائمًا "إذ" تأتي بمعنى واذكر، لحظة ماضية في القصة يذكرها الله -عز وجل، ولحظة هامة أيضًا في ذكر القصص، فهنا ربنا -سبحانه وتعالى- ذكر أهم لحظة في القصة كلها، مثلما قلنا في سورة العاديات، وكيف وأنت تفتتح المشهد في أول صفحة في السورة فتجد صوت خيل ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾[العاديات ١] وما زال الجو مظلمًا، وأنت لا زلت لم تعلم ماذا حدث.

فأنا أريدك أن تتخيل مثلًا أن مسرحًا سيعرض لنا قصة أصحاب الكهف، وقبل أن يبدأ العرض وجدت هذه الجملة على شاشة أمامك: تنبيه: لا تظن أن ما ستراه هو أعجب آيات الله، بل كل آيات الله عجيبة، فقلت في نفسك: ونعم بالله، ثم بدأ العرض فإذا بأناس يركضون، ثم تأتي لحظة إيواء ﴿إِذْ أَوَى﴾[الكهف ١٠] فتشعر بالاطمئنان، قصة مخيفة، كهف موحش، ظلم، استعباد، تعذيب، وربما يصل الأمر لرجم الكفار لهم، انظر إلى أي حد وصل الظلم والاضطهاد! وبالرغم من ذلك الكلمة كلمة مطمئنة.

أول كلمة في القصة ﴿إِذْ أَوَى﴾ من؟ ﴿ٱلْفِتْيَةُ إِلَى﴾ لماذا لم تأتِ "إذ أووا" ففي الآية التي قبلها ذكر ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾[الكهف ٩]؟ وهذا يسمونه في البلاغة إظهار في موطن الإضمار، أي أنه كان من الممكن أن يأتي ضمير، موطن الإضمار يعني ضمير، وهو ضمير يشير لأصحاب الكهف، فعندما يُذكر اسم ثم يتكرر يمكن أن تستعمل الضمير، فربنا -عز وجل- قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ﴾، وفي الآية التي بعدها يمكن أن يقول "إذ أووا" لكن قال الله -عز وجل- بعدها: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ [الكهف ١٠].

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ﴾ ذكر الفتوة؛ لذلك بعض المفسرين ذكر أن الفتوة هنا ليست فقط بمعنى السن، وإنما بمعنى الإيمان -قوة الإيمان-، فهم شباب والشباب هم أكثر الناس انشغالًا بالفتنة، فعندما يكونون أكثر الناس فرارًا ورغبةً عن الفتنة فهذه علامة إيمان بل وفتوة الإيمان.

إذًا أول ثلاث كلمات: لفظة مطمئنة ﴿أَوَى﴾، ثم لفظة تتكلم عن قوة البدن والإيمان ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾، ثم لفظة موحشة ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ ، ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ ثم لا تستمر كثيرًا مع اللفظة الموحشة، ما الذي يذهب بهذه الوحشة التي في تلك اللفظة؟ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾ أي ملخص القصة كلها، فتية يفرون إلى ربهم، ويقولون: لا تتركنا يا رب، هذا ملخص القصة، هذا هو المعنى الذي يجب أن تخرج به من القصة، ثم تجد أن الله فعل كل ما حدث بعد ذلك ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الكهف ١٧].

كنا قد شرحنا حديثًا في درس "أرجوك لا تنصرف" قلنا: (أما الأول فآوى إلى الله، فآواه الله...)[٢] حديث الثلاثة نفر، ارجعوا له.

- الأول: آوى إلى الله؛ فآواه الله.
- والثاني: فاستحيا؛ فاستحيا الله منه.
- والثالث: أعرض؛ فأعرض الله عنه.

فأهل الكهف من الصنف الأول، ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾[الكهف ١٠] هذا أول مشهد تُفتتح به القصة، فتية يجرون في اتجاه موحش يقولون: يا رب لا تتركنا، وهذا المشهد لابد أن ينطبع في القلب قبل أن تشغلك التفاصيل، والأعداد، والنقاشات، وماذا حدث لهم؟ وما مآل الخلاف فيهم؟ قبل أن تشغلك كل هذه التفاصيل ركز على هذا المعنى، لا بد لهذا المعنى أن ينطبع في قلبك، ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾. ماذا طلبوا من ربهم؟ انظروا إلى الفقه، طلبوا شيئين: **الرحمة والرَّشَد**؛ لأنهم في موطن تعذيب وآلام وخوف فيحتاجون إلى الرحمة، وموطن اضطراب وفتنة وشرك فيحتاجون إلى الرَّشَد.

[٢] [عن أبي واقد الليثي]: أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَما هو جالِسٌ في المَسْجِدِ والنَّاسُ معهُ إذْ أقْبَلَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فأقْبَلَ اثْنانِ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وذَهَبَ واحِدٌ، قالَ: فَوَقَفا على رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأمّا أحَدُهُما: فَرَأى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيها، وأَمّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وأَمّا الثّالِثُ: فأدْبَرَ ذاهِبًا، فَلَمّا فَرَغَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: ألا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ؟ أمّا أحَدُهُمْ فأوى إلى اللَّهِ فآواهُ اللَّهُ، وأَمّا الآخَرُ فاسْتَحْيا فاسْتَحْيا اللَّهُ منه، وأَمّا الآخَرُ فأعْرَضَ فأعْرَضَ اللَّهُ عنْه.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٦ • [صحيح] •

﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾، بعض العلماء يُشير إلى أن كلمة ﴿مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ توحي برحمة خاصة، وليست رحمة عامة، فالله -عز وجل- قال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف ١٥٦]، ليست الرحمة العامة، هنا يريدون رحمة خاصة بهم، هم يقومون الآن بعمل خاص؛ فيريدون من الله -سبحانه وتعالى- رحمة خاصة، وهكذا هناك رحمات خاصة لأوليائه ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾[هود ٧٣] أنتم بيت مخصوص من وسط كل بيوت العالم؛ فطبيعي أن يكون لكم رحمة مخصوصة، لا تعجبوا من أمر الله معكم، هذه رحمة مخصوصة ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾. فهنا طلبوا رحمة مخصوصة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾[الكهف ١٠].

﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾، قلنا الرشد: الاستقامة والتصلب فيها والثبات عليها، وفي الدعاء(أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد)[٣]؛ فالرشد يحتاج إلى عزيمة، ﴿وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾

كل هذا ونحن في ثلاث آيات المقدمة، تخيل! أريدك أن تتخيل المشهد؛ فتية يركضون ويطلبون من الله الرحمة والرشد، ثم في الآية التي تليها مباشرةً استجابة الدعاء، تخيل أنك تسمع القصة لأول مرة، تخيل كيف ستكون استجابة الدعاء، ما الذي سيحدث؟

قد تتصور صاعقة من السماء نزلت على الملك ودمرت القصر، أو زلزالًا بقوة عشرة ريختر دمر الأصنام ثم عادوا منتصرين، لا، ليس هذا ما حدث، وإنما ما حدث أنهم ناموا! بعد هذه المقدمة العظيمة والأعاجيب التي بدأ بها الكلام، يكون الحل أن يناموا؟! نعم، ربنا -عز وجل- حفظهم بالنوم! لم يُنزل ملائكة تحيطهم، ولم ينزل نور ساطع من السماء؛ وإنما ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾[الكهف ١١]، ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾[الكهف ١٢]، الآية كلها أن الله -عز وجل- جعلهم ينامون ثم بعثهم، لماذا؟ ﴿لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا﴾ [الكهف ١٢].

هذه هي المقدمة، فتية يقولون: يا رب؛ فنجاهم الله -عز وجل- بالنوم ثم بعثهم بعد ذلك ليُظهر قدرته -سبحانه وتعالى-، هذه هي القصة، وهي ملخص لقصص كثيرة في الحياة، أُناس ضحوا؛ فتقبل الله -عز وجل- تضحيتهم، ثم أظهر هذا البذل للناس ليتأسوا بهم، هذا هو الملخص.

---

[٣][عن شداد بن أوس]: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كان يقولُ في صلاتِه: (اللَّهمَّ إنِّي أسألُك الثَّباتَ في الأمرِ وعزيمةَ الرُّشدِ وشُكرَ نعمتِك وحُسنَ عبادتِك وأسألُك قلبًا سليمًا وأسألُك مِن خيرِ ما تعلمُ وأعوذُ بك مِن شرِّ ما تعلمُ وأستغفرُك لِما تعلمُ)
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ١٩٧٤ • أخرجه في صحيحه

عندما أقرأ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[الكهف ١١] مع الأحداث التي نعيشها في أزمة كورونا الحالية، أستحضر أن الله –عز وجل– عندما يريد شيئًا ما فيمكن أن يتم بأبسط الأمور، الإنسان تفكيره محدود، ساذج.

تخيل لو أتيتُ لك بصورة للشواطئ والنوادي والشوارع وأماكن الخروج وأماكن الفتن وأماكن المعاصي وأماكن المباحات وكلها مليئة بالناس، ثم أتيتُ لك بصورة أخرى فرأيت الناس يبتعدون عن بعضهم، يحذرون الاقتراب، ويجتنبون السلام، ثم رأيت نفس الأماكن في الصورة السابقة، ولكنها هذه المرة فارغة تمامًا، لا يقربها أحد من الناس، ثم سألتُك: كيف تحول المشهد من الصورة الأولى إلى الثانية؟

ستتخيل مُذنَّبًا، مخلوقات فضائية، يمكن أن تتصور كوارث، لكن آخر ما يمكن أن تفكر فيه أن السبب كان فيروسًا صغيرًا لا يُرى بالعين المجردة! الله –سبحانه وتعالى– قادر، فلا تيأس ولا تتعجب كيف سينصر الله –عز وجل– أمة الإسلام في ظل هذه الظروف الحالكة.

عندما قال الله –عز وجل– لأم موسى –عليه السلام– ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص ٧] فقال لها: ارميه في البحر، فرمته في البحر؛ فأخذه فرعون، تخيل كيف سيعيد الله –عز وجل– موسى من قصر فرعون إلى أمه؟ هل ستنزل فرقة من قوات الصاعقة وتذهب لتخطفه ثم تهرب من القصر في ظلام الليل! ثم تأخذ أم موسى ويهربون! لا، ولا أي شيء من هذا، وإنما ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾[القصص ١٢] أنت مهما أبحرت بتفكيرك فلن تصل لهذا؛ إنها قدرة الله –سبحانه وتعالى– ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[لقمان ٢٧]. فالسورة هنا ذكرت حل عجيب جداً ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف ١١-١٢].

في هذا الجزء الناس لا يفهمون ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾، ربنا يقول هناك فريقان سيختلفان في المدة التي ناموا فيها، ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾؛ فريقين، أحصى: هنا يوجد خلاف –وهنا سنرضي كل الأطراف من يريد لغة سنرضيه ومن يريد معاني سنرضيه قدر المستطاع.

﴿أَحْصَىٰ﴾: اختلفوا هل هذا فعل ماضٍ، أم أفعل تفضيل –أي أكثر إحصاءً–:

- الزمخشري وغيره قالوا: لا، هذا فعل ماضٍ، لماذا وقد تصلح أن تكون صيغة تفضيل؟ ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾أي: أدق أو أكثر إحصاءً، قال: لا، أنا سأتبع القاعدة، والرباعي لا يأتي منه أفعل، إلا في الشواذ.
- لكن ابن عاشور وغيره ردوا عليه، واختار أنها أفعل تفضيل، والمعنى متقارب.

المهم أن العلماء فكروا في أن الله يقول: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ ما القيمة في هذا المعنى؟ فالمفسرون بدأوا يحاولون..

صراحةً الناس كانت تتضايق وهذا من التعليقات التي جاءت المرة الماضية، ومع كثير من الدروس الماضية البعض يقول لا نريد إحالات على كتب، لا تشتتنا، نحن لا نعرف كيف نرجع لهذه الكتب، لكني من شدة انبهاري بجهود العلماء في تفسير القرآن لا أستطيع أن أكتم، وأقول لكم ارجعوا لهذه الكتب، فأنا مثلًا قرأت بعض الكتب في تحضير مجلس اليوم.. الإمام القاسمي وابن عاشور ومن المتقدمين بالطبع الطبري وابن عطيه، وهي رحلة ماتعة حقًا، من جنة الدنيا ومن نعيم الدنيا أن تقرأ في التفاسير.

فالخلاصة بعض العلماء قالوا: المعنى أنهم عندما يكتشفونهم.. حتى نص كلام ابن عاشور يقول :"ليظهر اضطراب الناس في ضبط تواريخ الحوادث واختلال حرصهم وتخمينهم" فماذا يريد أن يقول؟ أنه دائمًا لا يجب علينا أن نثق في البشر، البشر سيظلون يختلفون، وهذا صحيح، والمعلومة الحقيقية عند الله، وتجد أحدهم يحضر لك مثلًا معلومة من قديم الزمان، فهل معك مثلًا كتاب من الله –سبحانه وتعالى– بهذه المعلومة؟ لا.

لذلك أنا أثق في القصة التي ذكرها الله؛ لأننا.. لم نحضر هذه الأحداث. فمن النقاشات التي حصلت من فترة طويلة –الذين يضربون شبهات في القرآن– قصة أصحاب الكهف وقالوا إن فيها أخطاء، وإن كتب التواريخ القديمة قالت غير ذلك، ونحن نثق في هذه الكتب، أنترك كتاب الله –سبحانه وتعالى– لنثق في مثل هذه النقاشات التي فيها خلافات في تحديد بعض أوجه هذه القصة؟! وهذا الكلام تكلم عنه الإمام الندوي في شرحه لهذه السورة.

فنثق في كلام الله، مهما حاول البشر في ضبط الأشياء سيظل عندهم اختلاف.

- فابن عاشور أراد أن يشير إلى أن نثق في علم الله ولا نثق في الخلافات البشرية، فعندما تأتينا معلومة من القرآن ومعلومة بشرية ظاهرها التعارض، وهذه المعلومة يقينية نثق في كلام الله –سبحانه وتعالى–.
- الإمام القاسمي التقط معنى آخر يقول: عندما يستيقظون ويعرفون أنهم مكثوا أكثر من ثلاثمائة سنة "فيعلموا قدر ما حفظهم الله بلا طعامٍ ولا شرابٍ وأمَّنهم من العدو فيتم لهم الرُشد في شكره وتكون لهم آية تبعثهم على عبادته –سبحانه وتعالى–". يريد أن يقول: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾؛ سيعلمون قدر نعم الله عليهم.

فالمعنى هنا يقول إن هناك أحداثًا كثيرة تحصل في حياتك لا تعرف تفاصيلها. فأصحاب الكهف في البداية عندما قاموا وهذه قصتهم هم، هم نفسهم لم يعرفوا المدة التي مكثوها! إلا عندما رجع واحد منهم –كما سنحكي إن شاء الله– وعرفوا بعد ذلك المدة التي مكثوها! أكثر من ثلاثمائة سنة.

أي أنت نفسك يحصل لك أحداث لا تعرف مقدار لطف الله فيها، لا تعرف كيف رتب الله لك أحداثًا وقصصًا، وراء قصص حياتك أحداثًا مهولة لا يعلمها إلا الله –سبحانه وتعالى–؛ فلا بد أن تشكر الله –سبحانه وتعالى– حتى لو لم تعلم ما وراء هذه الأحداث، طريقة عملك، طريقة جوازك...، أي فتح يحدث لك من الله وراءه قصص، كما في قصة أصحاب الكهف وراءها أحداث، لذلك عبد الكريم الخطيب في تفسير القرآن يقول: وكذلك –هنا علق على هذه الآيات التي هي من أول ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾[الكهف ٩]– قال: كما أن مشهد استيقاظهم في هذا الكهف وراءه قصة ووراءه لطف الله، فكذلك قصة كل نبتة، كل بذرة وراءها قصة، كل جنين وراءه قصة، كل حدث في الكون وراءه قصة. عندما تقرأ مثلًا مقدمة سورة الذاريات، قصة نزول المطر وتوزيع الأرزاق من بداية انتشار الرياح ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات ١–٤] قصة توزيع الأرزاق ونزول الأمطار.

﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾[الكهف ١٢] فهنا نحن أخذنا التنبيه، وأخذنا المقدمة التي كان فيها نوع من التشويق.

❖ التحليل / التفصيل:

نبدأ بالتفصيل، سنمر مرورًا سريعًا وسنقف مع الوقفات الهامة.

ربنا يقول: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ﴾[الكهف ١٣] نحن، الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يملك الحقيقة المطلقة، وأنزلها في كتابه -سبحانه وتعالى-، لأنه كما قلت كان كما في الأبحاث العلمية يقول هناك debate ونحن نريد أحدًا ليحل لنا هذه الأزمة. فهنا كان هناك نقاش، من الأعداد واختلاف، فربنا يقول له: دعك من كل هذا الكلام، ولذلك قال له في النهاية: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾[الكهف ٢٢]، أنت معك المصدر ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾[الكهف ١٣] بعيدًا عن التخرصات وبعيدًا عن التخمينات والظنون ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾.

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ﴾ نفس البداية كما قال سابقًا ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ﴾[الكهف ١٠]، فنحن لدينا التنويه أخذنا منه معنى، والمجمل أخذنا منه معنى، بداية القصة التحليلي أيضًا سنأخذ منه معنى.

كأن الله يقول لك في البداية: كل ما سيقابلك من آيات ومن أعاجيب، **إنه الإيمان**، إجابة الكثير من التساؤلات، كيف ضحوا؟ كيف سافروا إلى مكان لا يعلموه؟ لا يعلمون تفاصيل الأحداث، مآلات عواقب الأمور.. إنه الإيمان، إجابة سؤال سيقابلك كثيرًا، كيف قاموا أمام الملك؟ كيف استعلنوا بالإيمان؟ كيف ذهبوا إلى الكهف؟ كيف اجتمعوا؟ إنه الإيمان. هذه إجابة تساؤلات لأحداث قد تحدث في حياتك، إن وُفقت للإيمان فالله -سبحانه وتعالى- يمنّ عليك بأحداث عجيبة وبأقدار عجيبة.

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف ١٣] انتبه أنهم في أكثر من موطن في القصة أنهم قدموا الشبر الأول، فالله لم يقل "إنهم فتيةٌ أعطيناهم من الإيمان" لا، إنهم فتية، أخذوا الشبر الأول، ففي الحديث (من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً)[٤].

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ﴾ أولاً هم آمنوا، ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[الكهف ١٤] متى؟ ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ لحظة قيامهم جاء الربط على القلب، وسيأتي ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾[الكهف ١٦]. أولًا يجب عليك أن تأوي إلى الكهف حتى ينشر لك رحمته، إذاً مع كل خطوة لا بد أن تقدم أنت شبرًا.

[٤] [عن أبي هريرة]: يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أنا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وأنا معهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وإنْ ذَكَرَنِي في مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ منهمْ، وإنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إلَيْهِ ذِراعًا، وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ منه باعًا، وإنْ أتانِي يَمْشِي أتَيْتُهُ هَرْوَلَةً. وفي روايةٍ: بهذا الإسْنادِ، ولَمْ يَذْكُرْ: وإنْ تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ منه باعًا.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٦٧٥ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). •

تريد فتحًا من الله –سبحانه وتعالى– قدِّم الشبر الأول. كثير من الناس.. كثير جدًا، عندما أرى الأسئلة التي تأتيني –وكنت أريد أن أقدم مجلسًا يجمع محاور رؤوس الأسئلة التي تأتيني إن شاء الله– جزء كبير من الأسئلة عن الخوف من المستقبل، أريد تفاصيل الإجابات، أريد معرفة تفاصيل الطريق، أريد أن أعرف تفاصيل طريق العلم، أريد معرفة تفاصيل الطريق التربوي، وتكلمت عن هذا في درس "إشكالية التفكير الهندسي"، هو رافض أن يمشي قبل أن يرى تفاصيل تفاصيل تفاصيل الطريق، رافض لهذا.

–تقول له: سنمشي خطوة بخطوة وخذ الشبر الأول وربنا لطيف لما يشاء –سبحانه وتعالى–.

–يقول: لا، أنا أريد معهد يكون عشر سنوات، وكل سنة ماذا سآخذ؟ وما الذي سيحصل؟ ولو أنني لم أذاكر ماذا سيحصل؟

تصور في علاقته بالله، هذا قد نحتاجه، نعم نحتاج نوعًا من المنهجية في السير، لكن ليس بهذه الطريقة. المنهجية القرآنية مختلفة، فهنا ربنا –سبحانه وتعالى– يخبرك أنهم آمنوا، قدموا الشبر الأول ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[الكهف ١٣]، انتبه هنا كلمة ﴿زِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ الإمام الطبري قال معنى جميلًا: ما معنى ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾؟

الإمام الطبري من خلال هذه القصة، هناك آيتان لم أرَ من وُفق لشرح الآيتين مثله، وسبحان الله هذا من الفتح، الإمام القاسمي مثلًا التقط معنى في آية، وابن عاشور التقط معنى؛ فأنا أحاول قدر المستطاع جمع كل من وُفِّق في هذا، إنما أنا جامع لهذه الدرر.

يقول في معنى ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾: "وزدناهم إلى إيمانهم بربهم إيماناً وبصيرة بدينهم؛ حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه إلى خشونة المكث في كهف الجبل"، فماذا يريد أن يقول؟

إن الإيمان الأول كان كافٍ لمواجهة الفتنة الأولى، فأنا فوجئت أن الإيمان الذي.. –انتبه معي– الإيمان الأول سيتسبب في ابتلاءات صعبة لا يكفيها الإيمان الأول، فربنا يقول لك لا تقلق، سأمدك بالإيمان الذي يقاوم البلاءات القادمة، بالضبط كما في ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖ﴾ [القصص ٨٥] تمسكك بالقرآن كان سببًا في هجرتك من مكة، سأمدك بالمعونة حتى تعود مرة أخرى. هم أخذوا

قرار الإيمان، يا رب آمنا بك، فوجئوا أن قرار الإيمان سيعرضهم للأذى، وسيعرضهم لطرد، يجب أن نترك البلد، سيذهبون إلى الكهف.

((لو كنت مخلصًا؛ تبعات الإيمان سيمدك الله بها))

لأن هناك أناس كثر يقولون: أنا أخاف أن أمشي في الطريق، **أصدق الله يصدقك**، الطريق له تبعات، اختيار الطريق له تبعات، لكن سيمدك الله بالمعونة. ولا سيما عندما تقرأ أنهم شباب، وغالب الروايات المذكورة أنهم كانوا مترفين –وعلى اختلاف الروايات– هل هم أولاد أغنياء؟ أي أن آباءهم هم الذين كانوا رؤساء وكانوا في مناصب فهم أولادهم فكانوا مترفين، أو هم أنفسهم كانوا يعملون في القصر، وكانوا يعرفون الأسرار التي تدور في داخل القصور، أيًّا كان فهم شباب ويأخذون هذا القرار.

لذلك ابن كثير التقط معنى أن الشباب أقدر على مواجهة المجتمعات والتقاليد من الشيوخ، والتقط هذا المعنى وقال إن هذا حدث مع قريش، إن رؤساء قريش لم يسلموا، ابن كثير مبدع، هناك عدة لقطات في القصة ابن كثير كان مبدعًا فيها، لذلك من يقول لي ماذا أقرأ؟ أقول له: ممكن أن تقرأ في هذه القصة ابن كثير والقاسمي والسعدي، في المجمل هؤلاء الثلاثة جيدون جدًا.

نعود من جديد. فالخلاصة؛ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾[الكهف ١٣] الله لن يضيعك –إن شاء الله–، وانظر إلى الهدى هنا أيضًا ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾[الكهف ١٤].

﴿إِذْ قَامُوا۟﴾؛ القَومة هنا لم يكونوا قاعدين وقاموا، لا، ﴿إِذْ قَامُوا۟﴾ قَومة، كان هناك درس بهذا العنوان "قَومة"، أن المجتمع كله خطأ، المجتمع كله مشرك، المجتمع كله تقاليد شرك ووثنية. الندوي عندما عاد وحاول تحديد التواريخ ودراسة هذا المكان، وأن الثورة اليونانية المترفة كانت منتشرة، حاول أن يلخص كم كانت فتنة الوثنية والترف، وكان هناك أشبه ما يكون بثورة جنسية، فهو يحلل كيف استطاعوا القومة على هذا الترف؟ قرار صعب.

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟﴾ أمام الناس كلهم. هنا يوجد خلاف، هل قاموا بينهم وبين بعض؟ أم قاموا أمام الملك؟ أن يقول الله ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ هذا كان أحد أوجه الترجيح أنه أمام الملك؛ لأنه من الصعب أنك تقف أمام الملك، وأمام الناس وتعترف وتقول: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لذلك قالوا هنا يوجد إشارة ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلن يضيعنا، الذي يملك السموات والأرض سيضيعني أنا؟!

من أنا في خلق السماوات والأرض! فالذي يحفظ السماوات والأرض، والسماوات والأرض يحتاجون إلى رب، والله -سبحانه وتعالى- يحفظ السماوات والأرض، أفلا يحافظ عليّ -سبحانه وتعالى-؟! ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

لذلك ﴿إِذۡ قَامُواْ﴾ وقد قلنا قَومة، ﴿فَقَالُواْ رَبُّنَا﴾ لاحظ أن أول كلمة قالوها في المقدمة: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا﴾[الكهف ١٠] انتبه إلى كلامهم، كلامهم معدود جدًا، وكل كلامهم فيه "ربنا":

- ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ﴾[الكهف ١٠].
- عندما وقفوا أمام الملك ﴿إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا﴾[الكهف ١٤].
- وأول ما قاموا ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾[الكهف ١٩].

لا يفتأون يذكرون الله -سبحانه وتعالى-، في ثلاث مرات، في ثلاث مواقف التي سلط الضوء عليهم فيها، في الثلاث مواقف قالوا: "ربنا"، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ﴾[الكهف ١٠]، ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الكهف ١٤]، ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾[الكهف ١٩]، مرة دعاء، ومرة دعوة، ومرة تفويض لعلم الله -سبحانه وتعالى-.

﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾[الكهف ١٤]، (لن) للقطعية، ومعناه أنهم يحدِّثون القوم ويقولون لهم: "إذا وافقنا على ما تقولون من وثنية وخلاعة نكون مختلين؛ لأن هذا شطط" ومعنى الشطط هنا: البعد، شطَّ الشيء أي: أبعده.

((أن توفَّق لرؤية الباطل على أنه ضلال مبين، هذا هو الرَشَد))

أتتخيل أن هناك أناسًا حاليًا يرون الشذوذ على أنه أمر طبيعي؟ وأنه ومع مرور الوقت -اللهم احفظنا من هذه الغربة- سيشعر من يراه على حقيقته -أنه شذوذ- بالغربة! إذًا فرؤيتك للشرك على أنه شرك، هذا رَشَد؛ فهناك أناس لا يرون مشكلة في الشرك طالما هذا المشرك لا يؤذي أحدًا! يقولون: "طالما يخترع المشرك لنا اختراعات مفيدة كالهاتف المحمول والتكييف فما المشكلة إذًا في سبِّه الله؟! وما المشكلة في الإلحاد إذا لم يؤذِ أحدًا؟". تعريف الإيذاء لدى قائل هذا الكلام به خلل في الأساس- فتجده يقول: "لماذا أنتم منزعجون من فلان الكافر؟ ألم يخترع لكم التكييف؟".

أيُعقَل أن أكفر بالذي خلق السماوات والأرض لأن بشرًا اخترع ما يبرد الهواء لي؟! أأكفر بالذي خلق السماوات والأرض وخلق مخترع التكييف وأنعم علينا نحن الاثنين؟! ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا﴾.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ﴾[الكهف ١٥] بداية تفكير أصحاب الكهف تفكيرًا منطقيًا، ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ﴾ وهذا فيه محاجة لهؤلاء القوم، فما دليلهم على اتخاذهم إلهًا من دون الله؟ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾[الكهف ١٦]، أخذ الفتية قرار العزلة، ﴿فَأۡوُۥٓاْ﴾ وهي لفظة مريحة جدًا.

ما هو الكهف؟ هل كان هذا الكهف مألوفًا لهم؟

- قال قلَّة من المفسرين إن هذا الكهف كان مألوفًا لهم، وأظن أن من قال بأنهم كانوا يعرفون هذا الكهف قال هذا لسببين؛ أولهما: أن لفظة ﴿ٱلۡكَهۡفِ﴾ مُعرَّفَة بالألف واللام، وثانيهما: أنه استصعب أن يكونوا ذهبوا لمكان غريب عنهم لا يعرفونه.
- لكنَّ الذي قرأ الآثار ونظر إلى سياق رحلة هؤلاء الفتية سيرى أنهم خرجوا وتركوا المكان.

* وقد أشار لهذا ابن عطية والتقطها منه ابن عاشور واستفاض في شرح هذا المعنى ابن عاشور، التقط ابن عاشور معنى –بسبب الاختلاف على مكان حدوث قصة أصحاب الكهف وأسبابها وزمنها وهل حدثت في الأندلس أم في سوريا أم اليونان أم تركيا أم في وقت تعذيب اليهود أم وقت تعذيب النصارى؟– فقال إن هذه القصة قصة متكررة؛ ففرار الناس من الاضطهاد الديني إلى كهف لعبادة الله وحده كان فعلًا متكررًا، وذَكَرَ أن هناك أكثر من كهف وُجِد به عظامًا لأناس، ولكن هؤلاء الفتية المذكورين في سورة الكهف قد منَّ الله عليهم بذكر قصتهم.

❖ حسن الظن بالله:

تأمل في وصف المكان الذي اختاروه ثم انظر إلى حسن ظنهم بالله؛ الكهف مكان مظلم وموحش ولا توجد به أيَّة وسائل للمعيشة ثم هم أحسنوا الظن بالله وقالوا: ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾، تأمل في اللفظ الذي استخدموه، قالوا ﴿يَنشُرۡ﴾، ولم يقولوا "يعطكم"، وهذا قريب من

قول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا...﴾[فاطر ٢]، لفظة ﴿يَفْتَحِ﴾ توحي بأن شيئًا كان مغلقًا ثم فُتِحَ فانهمر ما بداخله؛ فلفظة ﴿يَنشُرْ﴾ بها سعة توسِع ضيق الكهف. ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾وهذه الآية تعطيك شعورًا بأن هناك شخصًا متكئًا وسعيدًا في الكهف.

هذه هي حياة المؤمن حتى ولو كانت في النار التي ألقي فيها سيدنا إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- يجعلها الله بردًا وسلامًا. ومثال على حسن الظن بالله قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[٥]!. وأشار أحد الكتاب إلى معنى لطيف، في مجمل كلامه قال: وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول لأبي بكر: إن هذه الرحلة ليست كأي رحلة، فهذه هجرة إلى الله -سبحانه وتعالى- ولن تكون معاملة الله كأي معاملة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة ٤٠]، (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)!.

كذلك ما فعله الفتية من هروب وعزلة، كانت لأجل الله -سبحانه وتعالى-؛ ولهذا أحسنوا الظن بالله. دائمًا عند ذكر هذه الفائدة أو عند الحديث في درس عن حسن الظن بالله، كثيرًا ما يأتي أهل البلاء ويقولون: "نحن في ابتلاءات وندعو الله كي ينجينا ولكن لا يحدث شيء!"، أقول لهم:

- أولًا: الله -سبحانه وتعالى- حكيم، له حِكَم عظيمة لا ندركها كلها بالطبع، ولا يدرك كل البشر بعض الحكم.
- ثانيًا: يُعْطَى الإنسان بدعائه إحدى ثلاث؛ يعجل له أو يدخر له أو يصرف عنه من البلاء.
- كما أن الله يقدِّر أقدارًا لحِكَم؛ فمثلًا أطال الله فترة بلاء سيدنا أيوب عليه السلام -قيل اثنا عشر عامًا وقيل ثمانية عشر عامًا- حتى يكون حُجة على غيره، فأحيانًا عندما تُبتلى ابتلاءً شديدًا يكون لديك فرصة لتكون آية من آيات الله على الصبر، آية تدل على وجود الله مثلما سنذكر الآن في معاني قصة أصحاب الكهف، إذًا ليس من الضروري أن يُعامَل كل الناس بنفس المعاملة، لكنَّه من الضروري أن يحسنوا الظن بالله في كل الأحوال.

قد يتساءل أحد هنا، كأحد السائلين الذي سألني: كيف أحسن الظن بالله ووالدي توفي بفيروس كورونا، أليس هذا عذابًا؟!

[٥] [عن أبي بكر الصديق]: قُلتُ للنبيِّ ﷺ: وأنا في الغارِ: لو أنَّ أحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنا، فَقالَ: ما ظَنُّكَ يا أبا بَكْرٍ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما. البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٦٥٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١) •

هذا ليس صحيحًا، فنفس الموقف قد يكون رحمة للمؤمن، وعذابًا على الكافر! أصبحنا نفكر تفكير من يريد أن يتعامل مع الأمور ببساطة، فيأتي بفكرة ثم يعممها ويجعلها مطردة في كل الأحوال، لكن معاملة الله للمؤمن وقت البلاء تختلف عن معاملته –سبحانه وتعالى– للكافر وقت البلاء!

وأحيلكم إلى درس بعنوان "الفارق بين مصائب المؤمنين ومصائب الكفار"، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قال في الطاعون؛ وهو قريب من الكورونا، قال" (الطاعون رحمة للمؤمنين وعذاب يرسله الله على الكافرين)[٦]. انظر! هو نفس الفيروس ولكنَّه رحمة أو عذاب حسب الإيمان والكفر وتعامل الإنسان معه.

الخلاصة: **إياك أن تجعل بعض الابتلاءات مانعة من حسن الظن به –سبحانه وتعالى–، فإنك إن جعلتها تمنعك من حسن الظن به جل وعلا ستخسر حتمًا؛ لأنك في النهاية مِلْكٌ لله، وإنا لله، وإنا إليه راجعون!** والفائز هو من رضي بقضاء الله –سبحانه وتعالى– وأحسن الظن به وصبر على ابتلاءاته، نسأل الله اليقين والعافية.

❖ قدرة الله-تعالى- :

﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾. تجد هنا أن أصحاب الكهف كأنهم اختفوا من المشهد، وظهرت قدرة الله المطلقة.

أحسست بشعور غريب هذه المرة وأنا أُجهِّزُ تفسير سورة الكهف، رغم أنني قرأت قصة أصحاب الكهف كثيرًا ودائمًا ما أناقش الناس فيها وسمعتها من المشايخ، وكنت كل مرة أشرح القصة أو أسمعها من زاوية ماذا قدم أصحاب الكهف من بذل وتضحية. لكنِّي هذه المرة شعُرت بمعنى جديدًا، وهو أن دور أصحاب الكهف في هذه القصة: هو الدلالة على قدرة الله –سبحانه وتعالى– فليس المهم عددهم ولا أسماءهم ولا زمانهم ولا مكانهم، إنما المهم هو أنهم آية ووسيلة تنظر من خلالها لقدرة الله –جل وعلا–؛ فلا تنشغلوا بهم ولا بأعدادهم ولا بمكانهم ولا بزمانهم، بل انشغلوا بالآيات والعبر في قدرة الله.

[٦] [عن عائشة أم المؤمنين]: سَأَلْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّاعُونِ، فأخْبَرَنِي أنَّه عَذابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ على مَن يَشاءُ، وأنَّ اللَّهَ جَعَلَهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، ليسَ مِن أحَدٍ يَقَعُ الطَّاعُونُ، فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صابِرًا مُحْتَسِبًا، يَعْلَمُ أنَّه لا يُصِيبُهُ إلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ له، إلَّا كانَ له مِثْلُ أجْرِ شَهِيدٍ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٤٧٤ • [صحيح] •

سأستعجل فائدة في الآيات -لحبي لكم- عندما بعثهم الله في آخر القصة وعلم الناس أن هذا للدلالة على قدرة الله على البعث، بماذا انشغل الناس؟ انشغلوا بشيئين:

- أولًا: التقديس لأشخاصهم، اختلفوا في بناء مسجد عليهم أو مقام، أم لا.
- ثانيًا: انشغلوا بتفاصيل حياتهم، اختلفوا في عددهم.

وهذان الشيآن هما ما نفعله دائمًا، مع أن هذا ليس مطلوبًا منَّا. ويحدث هذا مع كثير ممن يتابعون العلماء، فهم إما يقدسونهم تقديسًا زائدًا فيقيمون لهم مقامًا مثلًا، وليس هذا مطلوبًا منك بل انشغل بعلمه وبما تركه. وإما هم ينشغلون بتفاصيل حياتِهم؛ فمثلًا يتساءلون عما إذا كان هذا العالِم متزوجًا من اثنتين أو ثلاثة؟ مع أن هذا ليس مطلوبًا على الإطلاق ولا يليق.

فالمطلوب هو الانشغال بجهاد هذا العالِم وعلمِه؛ تَرَك الناس الآيات العجيبة وقدرة الله التي جاء أصحاب الكهف للدلالة عليها وانشغلوا بما نص عليه القرآن الكريم: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ...﴾ [الكهف ٢٢]. مع أن المراد من وجود أصحاب الكهف هو التذكير بقدرة الله والآيات والعبر وعدم الانشغال بالتفاصيل لقوله -سبحانه وتعالى-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف ٩] في البداية. وفي المنتصف ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[الكهف ١٧]. وفي النهاية ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾[الكهف ٢٧].

اشتغلوا بالآيات والعبرة ولا تنشغلوا بالتفاصيل.

بعد اختفائهم من المشهد يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾[الكهف ١٧] قيل إن هذا خطاب للرسول -صلى الله عليه وسلم-، وقيل إنه لكل راءٍ ولكل من تصح منه الرؤية.

اختلف العلماء في تأويل هذه الآية -سأذكر لكم الخلاف والرأي الذي أميل له-. تساءل العلماء إذا كان بُعد الشمس عنهم هو من ترتيب من الله لموقع الكهف؟ بمعنى هل أرشدهم الله -بتدبيره- لاختيار كهفًا محددًا لا تؤذيهم الشمس فيه ويكون مكانه مميزًا جدًا بحيث يكون جيد التهوية ولا تضرهم الشمس؟ أم أن الكهف كان كهفًا عاديًا جدًا وكانت الشمس تغير مسارها من أجلهم؟ القولان موجودان.

بعيدًا عن الخلاف، عش مع الآيات:﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت﴾ كأن الشمس –هذا النجم العظيم– تعتني بهذا الكهف الصغير، فكأنها كائن حي مهتم بهم ﴿تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ﴾، فتطلع على الكرة الأرضية التي في وسط مجموعة من عدة كواكب، فكأن هذا النجم العظيم –الشمس– يركز مع الكهف الصغير الذي في كوكب من مجموعة الكواكب التي حوله، وعلى هذا الكوكب يوجد قارة معينة، وفي وسط هذه القارة دولة معينة، وفي وسط هذه الدولة أراضٍ كثيرة وكهوف كثيرة، وفي وسط هذه الأراضي كهف معين صغير تحيد الشمس عنه! ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ﴾ هم بالتحديد، معاملة خاصة.

ولا يتساءلنَّ أحدٌ كيف يعامله الله معاملة خاصة في ظل الأزمات الاقتصادية والكورونا مثلًا؛ فالله قادر على كل شيء، وهو قادر على معاملتك معاملة خاصة –ليس من الضروري أن تكون نفس معاملة أصحاب الكهف–. الله –سبحانه وتعالى– قادر، (فلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ اجتمعوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وكل واحد طلب سؤالًا غير الآخرين فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مَسْأَلَته، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِن ملكه شيئًا –سبحانه وتعالى–)[٧]. فمن الممكن أن تناسبك ظروف محددة وطلبات محددة ويعطيك الله إياها، فهو عليه هين –سبحانه وتعالى–.

عش مع الآيات ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾، إياك والانشغال بما لا ينفع ثم تنسى المعنى الذي في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

[٧] [عن أبي ذر الغفاري]: عَنِ النبيِّ ﷺ، فِيما رَوى عَنِ اللهِ تَبارَكَ وَتَعالى أنَّهُ قالَ: يا عِبادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظالَمُوا، يا عِبادِي كُلُّكُمْ ضالٌّ إلّا مَن هَدَيْتُهُ، فاسْتَهْدُونِي أهْدِكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ جائِعٌ، إلّا مَن أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبادِي كُلُّكُمْ عارٍ، إلّا مَن كَسَوْتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أكْسُكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ والنَّهارِ، وَأنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فاسْتَغْفِرُونِي أغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي لو أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنكُمْ، ما زادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانُوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبادِي لو أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قامُوا في صَعِيدٍ واحِدٍ فَسَألُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ مِمّا عِنْدِي إلّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي إنَّما هي أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيّاها، فَمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلّا نَفْسَهُ.وفي روايةٍ: إنِّي حَرَّمْتُ على نَفْسِي الظُّلْمَ وعلى عِبادِي، فلا تَظالَمُوا.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٥٧٧ • [صحيح] •

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾ أي: هداية الله أصحاب الكهف لمكان الكهف -على قول من قال بأن الله وفقهم لاختيار مكان محدد- أو الهداية بمعنى الهداية للإيمان الذي بفضل الله كان سببًا في تغيير الله مكان الشمس من أجلهم.﴿وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ لن ينفعه أحد.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾[الكهف ١٨]، اختلف العلماء هل تقليبهم كان حتى لا تأكلهم الأرض؟ وتساءل المفسرون؛ هل طالت أظافرهم وشعورهم أم لا؟ وأنا لا أرى ذلك وهناك روايات تنفي حدوث ذلك أيضًا، لأنهم عندما قاموا من نومتهم لم يتعجبوا من أشكالهم، بل قالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾[الكهف ١٩]؛ إذا كانوا وجدوا أشكالهم تغيرت فسيتساءلون عن هذا، ولكن هذا لم يحدث؛ بل بالعكس، الآية تصوِّر الهدوء والارتياح ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾[الكهف ١٩]. وقد ذكرت هذه المسألة لأن قوله -سبحانه وتعالى-: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾[الكهف ١٨] اختلف العلماء في معناه، إذا كانت هذه مهابة ألقاها الله عليهم، أم أنه بسبب أن أشكالهم مرعبة؛ أنا ظني أنها -والله أعلم- مهابة.

إذًا فالذي حفظهم وهم نيام وجعل الناس يهابون منهم قادر على أن يحفظك وأنت حي ويجعل لك مهابة بين الناس.

بعد ذلك ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ قاموا إذاً ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا﴾ [الكهف ١٩]؛ هذا أول سؤال تسأله عندما تشعر أنك أطلت النوم؛ كم لبثتم؟ قال له: يا رجل نحن نائمون، اتركنا فالله نجانا، يوماً أو قل أربعة وعشرين ساعة، ماذا يشغلنا! نحن سويًا مع بعضنا، نحن ماكثون طويلًا في الكهف هروبًا من القوم، ولا يوجد مكان آخر نذهب إليه ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾. كالعادة لا يحبون النقاشات الكثيرة؛ المراء الذي لن يُبني عليه عمل، وفي النهاية التفويض ﴿رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾.

حسنًا نحن جائعون؛ لم يأكلوا منذ فترة كبيرة ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾، لا يهم من هو، لا يهم اسمه؛ لأنهم من البداية -وهذا المعنى أشار له ابن كثير- **(يد الله مع الجماعة)** عندما اجتمعوا مع بعضهم... وهناك خلاف في الروايات كيف اجتمعوا؟ هل كل واحدٍ منهم أخذ القرار مع نفسه وتقابلوا خارج البلد؟ أم ترابطوا داخل البلد وأخذوا القرار وخرجوا سويًا؟ وأنا أميل من الروايات للقول الثاني؛ أنهم اجتمعوا داخل البلد وخرجوا كمجموعة، كانوا من المترفين، كانوا يعرفون بعضهم، وخرجوا، وقرروا أن يتجمعوا...

ف (يد الله مع الجماعة). ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ أي واحدٌ منّا، خادم من وسطنا، وهذا شيء طبيعي عندما نكون مع بعض في رحلة، عندما نكون مع بعض في اعتكاف، أي واحد منّا يقوم بهذه الوظيفة ليست مشكلة، الأمر طبيعي واحدٌ منّا ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾، أي واحد منّا يأتي بطعام، أي واحدٌ منّا.

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾؛ كلمة "بورقكم" بعض العلماء قال لأن هذه الكلمة التي فضحتهم؛ واحدٌ يقول هنا الكلمة هذه زائدة، ليس لها أهمية؛ كأن هذه إشارة للرواية؛ أنهم عندما شاهدوا الوَرِق الذي معهم هم عرفوهم من العملة ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ﴾. نحن ذكرنا من قبل أنه لا توجد في القرآن كلمة ليس لها أهمية:

- فقالوا هذه إشارة؛ هذه كانت سبب بأن يُعرفوا بها.
- بعضهم قال لا هذه إشارة بالرغم من التوكل والإيمان كان معهم الزاد؛ أي حاولوا قبل أن يغادروا أن يأخذوا معهم أموالًا، أي لم يخرجوا هكذا، فأنت من دون الأسباب... إذًا ستنطلق وتقول: يا رب، حسنًا هل معك سبب؟ لا تترك سببًا واحدًا تستطيع أخذه.

ذكرنا ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ﴾. إذاً ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ﴾ الدكتور حازم له شرح جميل جدًا هنا، تكلّم كيف يُبعث ويكون بمقدار المهمة، ثم يذهب ويأتي بسرعة، ممكن ترجعوا إلى شرح الدكتور حازم شومان شرح هذه الآية شرحًا جميلًا.

هنا اختلفوا في كلمة ﴿أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾، والمعنيين فيهما لطائف جميلة جدًا، هل الأطيب أم الحلال؟ الزكاة هنا؛ الزكاة تأتي بمعنى النمو ومعنى الحلال، فهل ابعثوا لنا واحدًا يختار شيئًا طيبًا؟ فهل "أزكى" بمعنى أكل طيب شيء حسن؟ ويوجد قول أنه كثير من الزكاة، أم حلال؟

- دعونا مع القول الأول: حلال، المعنى هنا لو حلال، لن ينشغلوا بالبلاء عن مراعاة أحكام الله – سبحانه وتعالى–، –ربنا يحفظنا يا رب– أحيانًا هناك أناس يمرون ببلاءات، عندما يكون في أي ابتلاء لا يتذكر حكم التيمم، حسنًا والصلاة! الصلاة التي فاتته! لا ينشغل بالأحكام! لا، لا بد أن تنشغل بها؛ ليس معنى أنك في ابتلاء أنك تنسى أحكام الله –سبحانه وتعالى–، فهذا هو المعنى.
- لو تحدثنا عن أطيب.. أنا أشعر هنا بمعنى؛ كيف استطاعوا أن يتكيفوا مع البلاء؟ أنت أحيانًا مثلًا أزمة كورونا، هناك فرق بين البرود، وهذا ما نراه في تعامل –والعياذ بالله– العلمانيين والممثلين والفجرة؛ يتعاملون مع أزمة كورونا بدلًا من أن يلجأوا إلى الله –سبحانه وتعالى– يكونون في قمة

البرود؛ أي ما زالوا مصرين على المعصية؛ يريدون رجوع هيئة الترفيه، ويعود إلى الترفيه مرة ثانية! في منظوره شيء طبيعي، لا، أنا لا أقصد هذا التأقلم، إنما التأقلم بمعنى أن -ربنا يحفظنا- إنسان عندما يقع في بلاء، فلا يكون في حالة الضجر وفي حالة الهلع، لا، بل يتأقلم؛ يبدأ يفكر كيف يعبد الله وسط هذه الأزمة بنفس راضية فيها سكينة، كالنبي -صلى الله عليه وسلم- حتى في مكة كان يداعب أصحابه، وكان الصحابة وهم في قمة الابتلاءات فيهم روح المداعبة، في الغزوة النبي -صلى الله عليه وسلم- يأخذ أمنا عائشة -رضي الله عنها- في غزوة ويسابقها... ففكرة أنك لا تجعل البلاء يسيطر على أعصابك، لا، بل تأقلم وتعايش وتعبّد.

فكيف أنهم قدروا على التأقلم؛ يقول له: اذهب يا رجل وأتِ لنا بطعام طيب نأكله، وعاشوا الموقف بدون أن يسيطر على أعصابهم.

﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ تكلمنا في الخلاف الذي فيها، وما وراءها من معانٍ ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾، ننتبه هنا، نحن متوكلون على الله وندعوه، ونأخذ بالأسباب، ذكرنا أخذ الورق، وهنا يقول ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾؛ أي أنهم هنا سيبعثون واحداً منهم، ستقابله أحداث كثيرة، لن يستطيعوا أن يخبروه بما يفعله في كل موقف؛ يجب أن يكون عنده حكمة. كما تحدثنا في سورة العنكبوت في قصة سيدنا لوط؛ سيدنا إبراهيم أرسل سيدنا لوط ولم يخبره ماذا يفعل، أنت ستتصرف، كذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-، أرسل سيدنا مصعب -رضي الله عنه- ولم يقل له ماذا يفعل. أنت تريد شخصًا حكيمًا يتلطف؛ فهو سيقابله مواقف، فقالوا له: نحن سنرسلك إلى المدينة تحضر لنا طعامًا، من أين ستأتي به؟ ماذا ستحضر؟ كم مبلغ من المال ستنفق؟ التفاصيل؟ هل سيعرف القوم أمرك؟ هل ستتنكر؟ تصرّف، حاول... المهم ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ لا تكشف أمرنا.

أريد أن أقول لكم أمرًا مهمًا؛ أحيانًا -جزاهم الله خيرًا- بعض الأخوة يكون من حماسته للدين وحبه للدين، يحب مثلًا أحد الدعاة فيقوم بتقطيع مقطع، هذا المقطع خطر ويمكن أن يُنزل مصيبة أو بلاء لهذا الداعي؛ حسنًا أنت تستطيع أن تأخذ جزءًا قبل المقطع وجزءًا بعد المقطع، عندها المقطع سيُفهم بطريقة صحيحة ولن يُفهم خطأً، ويضيف مثلًا صورة فيجعل المتفرج يسيء فيه الظن أكثر.

فأحيانًا هناك بعض المواقف لا ترى فيها تلطّف، فالإنسان يحتاج أن يفكر في تبعات الأفعال، حتى لو كانت أفعالًا جيدة، حتى لو أراد أن ينشر الدعوة وينشر الخير، ويعمل في الدعوة، عدم التلطف قد

يؤدي إلى مفاسد عظيمة. نحن في الماضي سجلنا سورة القصص أول ثلاث حلقات فقط للأسف، لم تُنشر لأنها تسجيل صوتي فقط، كنت تحدثت فيها عن الرجل الذي استغاث بسيدنا موسى؛ وقال له إنه كان يُضرب، وأنقذه سيدنا موسى، بعدها جاء مرة ثانية، ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾[القصص ١٩]؛ قالوا إن هذه الكلمة هي التي فضحت أمر سيدنا موسى -عليه السلام-؛ أي أن الرجل الذي أنقذه سيدنا موسى -عليه السلام-، وفعل فيه الخير هو الذي فضحه، وتسبب في تأجيل الدعوة إلى سنوات، نعم قد كان خيرًا بفضل الله -سبحانه وتعالى- وكل أقدار الله خير، لكن أحيانًا الإنسان يتسبب في مشاكل للدعوة بعدم التلطف.﴿وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا﴾[الكهف ١٩].

❖ فهم حقيقة الحياة:

﴿إِنَّهُمۡ إِن يَظۡهَرُواْ عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ﴾[الكهف ٢٠]؛ هنا الفهم للحياة، كما في أول السورة ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف ٧]،وقد سقط سهوا تفسيرها ... خيرًا أني تذكرت -سبحان الله-. قالوا في أول آية: ﴿أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾، قالوا: أقهرهم لزينة الدنيا ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾؛ الله يقول إني سأبتليكم ابتلاءات، من الذي لم تؤثر فيه هذه الدنيا؟ لذلك قالوا: أقهرهم لشهواتها وأحسنهم في التعامل مع زينتها. وتذكر أن ﴿أَحۡسَنُ عَمَلًا﴾ تختلف، أي: أحسن عملًا الذي عمله أصحاب الكهف، هذا كان أحسن عملاً بالنسبة لهم؛ وهو مختلف عن صاحب الجنتين، ومختلف عن سيدنا موسى والخضر، ومختلف عن ذي القرنين، أي: لا يجوز أن يعمل ذو القرنين ما عمله أصحاب الكهف؛ لأن كل شخص له أحسن عملاً.

أي: **كل واحد بيننا له العمل الأحسن الخاص به**، أي: هذا يعمل في الدعوة، هذا يعمل في خدمة كذا، هذا في العلم، هذا في الانعزال، هذا في الاختلاط مع الناس والدعوة إلى الله؛ فكل واحد منا يبحث عن الأحسن. لذلك السورة بدأت بأحسن عملًا وذكرت أعمالًا مختلفة، أي ذُكر انعزال "أصحاب الكهف"، وذُكر دعوة "صاحب الجنتين"، وذُكر تعلّم "موسى والخضر"، وذُكر الجهاد والسفر "ذو القرنين"، فكل شخص عمله يختلف عن الآخر، تذكرت هذه المعاني عند قولنا ﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾ في أول السورة.

وهنا قالوا ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾[الكهف ٢٠]؛ الفهم الحقيقي للحياة وليس الفهم الرومانسي؛ الحياة بها ابتلاءات، وهذه فكرة الهشاشة النفسية، وخطورة الفهم الساذج للحياة الذي يجعل الناس تنصدم في الحياة، فتصاب بحالة من الهشاشة ومع أي ابتلاء تسقط! الحياة بها ابتلاءات؛ هذه البلاءات نعم مع الإيمان تعطي الإنسان حالة من الرضا والقناعة والصبر والرضا، ويشعر بالأمل في الله وينتظر لقاء الله –سبحانه وتعالى– ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء ١٠٤].

هنا يقولون: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾[الكهف ٢٠]؛ هو يفهم طبيعة المعركة؛ لن يقتلك فقط، سيرجمك بالحجارة أو سيجبرك للعودة للكفر، هو يفهم جيدًا طبيعة المعركة؛ ليس رومانسيًا، لم يقل: "لو ظهروا عليكم سندعي الله ثانية فينزل صاعقة"، لا نحن نجانا الله فلنتلطف. فتجد أن السورة تعطيك توازنًا؛ دعاء وتضرع، وآيات عجيبة وأشبه بالمعجزات ثم تلطّف وأخذ بالأسباب؛ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾[الكهف ٢٠].

بعد ذلك ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا* وَكَذَٰلِكَ﴾ [الكهف ٢٠-٢١] لحظة ما وجدوهم ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف ٢١]؛ كل هذه القصة ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ الله أماتهم أكثر من ثلاثمائة سنة ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾. الله أمات الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية مائة عام، فعندما استيقظ قال: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة ٢٥٩]؛ الله –سبحانه وتعالى– جعل سيدنا إبراهيم –عليه السلام – يصعد على جبال ويحضر الطير ويقطّعها ويوزّعها، حتي يعلم ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة ٢٦٠]. هناك معارف في قدرة الله وفي لطف الله تحتاج إلى سنوات لنعرفها، تحتاج إلى ابتلاءات لنشعر بما فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[الكهف ٢١]؛ قيل: القصة أنهم كانوا في كفرٍ بالبعث وإنكار لقدرة الله، فلمّا رأوا الفتية ماتوا ثلاثمائة عام وفاقوا؛ فقالوا إذا كان الله أماتهم ثلاثمائة عام، وكانت البلد في أصلها مؤمنة فانتشر اليقين بالبعث.﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾..

❖ خطورة بناء المساجد على قبور الصالحين:

بدأت تنتهي القصة، بدأ التعامل الخاطئ ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، حسنًا أين الوعد؟ وأين الإيمان؟ وأين آيات الله؟ وأين الجهاد؟ وأين البذل؟ وأين نصرة الدين؟ انشغلوا إذًا بقضايا مختلفة تمامًا ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾، أُناس قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وأُناس قالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾. بالطبع

هناك خلاف طويل بين المفسرين؛ من الذي قال ابنوا عليهم بنيانًا؟ ومن الذي قال ابنوا عليهم مسجدا؟ وكلمة ﴿غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾؛ ابن كثير أشار -والتقطها القاسمي وغيره- أنه مؤكد أن هؤلاء الذين يغلبون على الأمر أنهم الكثرة أو الرؤساء والأمراء؛ أي ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾ -ذكرنا من قبل أن كل كلمة في القرآن لها دلالة- ﴿غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي: الرؤساء والأمراء والكثرة.

ممكن واحد يسأل لماذا نحن مهتمون بمن القائل ومعنى الكلمة؟ لأن كلمة ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ تُحدِث مشكلة؛ هل هناك أناس ممكن أن تستدل وتقول لك شرع من قبلنا، وأنه هنا يدل على الجواز؟ إذًا نبني المساجد على قبور الصالحين! أم أن هذا في الأصل يشير إلى فعل خاطئ؟ وهو رأي ابن عاشور والقاسمي وقبلهم ابن كثير وأيضًا من المتأخرين؛ الألوسي، استفاضوا أن هذا فعل شنيع خطأ، بل هذا ممن لعنهم الله (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٨]، والإمام القاسمي هنا أطال حقيقةً -جزاه الله خيرًا- لأنه كان في أواخر الدولة العثمانية وانتشار مسألة القبور وفتنة القبور. و كما يقول ابن القيم: "غالب شرك الأمم من القبور". في مسألة التهاون بقضية تعظيم قبور الصالحين، فهنا ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ هذا فعل خاطئ، حتى أظن أن الألوسي -لا أذكر تحديدًا- عندما قال: بما أنهم من الأصل غلبوا عليهم الأمراء فهم ليسوا مظنة عمل الحق.

وكما قلت لكم فهمي من هذه الآيات -كما كنت استعجلت وذكرته لكم- فهمي من الآيات هنا ذكر التصرفات الخاطئة مع سير الصالحين، وذلك في شيئين: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ و ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ﴾[الكهف ٢٢]. التقديس الذي لا يصب في صلب الشيء، فلم يقولوا مثلاً سنحضر كتبهم وندرس أعمالهم، لا، بل سننشئ مسجدًا، أي هو التقديس الظاهري، والخلاف في التفاصيل التي لا تؤثر في شيء. هذا ما يخص التصرفات؛ أي أن التعقيب على القصة -هذا فهمي والله أعلى وأعلم- القرآن ذكر تعقيبًا على القصة بالتصرفات الخاطئة مع سير الصالحين ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾.

* الخلاصة إذًا؛ أنا أقرر وأؤكد خطورة بناء المساجد على قبور الصالحين، وكم أن هذا مدخل ووسيلة للشرك وذريعة للشرك؛ لذلك كان يمنع منه كما قلت لكم القاسمي والألوسي استفاضوا، وابن عاشور لم يستفض بل أشار إلى خطورة هذا الأمر.

[٨] [عن عائشة أم المؤمنين]: قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَرَضِهِ الذي لَمْ يَقُمْ منه: لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ والنَّصارى اتَّخَذُوا قُبُورَ أنْبِيائِهِمْ مَساجِدَ، لَوْلا ذلكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غيرَ أنَّه خَشِيَ - أوْ خُشِيَ - أنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٩٠ • [صحيح] • أخرجه البخاري (١٣٩٠)، ومسلم (٥٢٩) •

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الخلاف؛ ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لا توجد واو بالطبع، ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾، رجمًا بالغيب بمعنى أن أحدهم مغمضًا عينيه ويرمي، فبطبيعة الحال لن يصيب الهدف، هذا تعبير قرآني اختلفوا في أصله، ولكن -والله أعلى وأعلم- معنى غيب أي: مغمض العين ويرجم بالحجارة من بعيد؛ فقلما يصيب الهدف، الذي يكون بعيدًا يرجم بحجارة وليس حتى سهم، وهو بالغيب لا يرى، فهذا معنى يستعمل في التخرصات والظنون.

﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ هناك فريق من المفسرين يرى أن العدد سبعة والثامن الكلب، وأنه تم تأجيل هذا القول بعد كلمة رجمًا بالغيب، وهذا هو شيخ الإسلام قال إن هذه هي الطريقة المثلى لإجابة الفتاوي؛ عرض الخلاف، ذكر الأقوال الباطلة، الانتهاء بالقول الصحيح ثم الترجيح، واستخرج من هذه الآية منهجية لعرض الأقوال، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية. وهناك خلاف طويل للغاية في مسألة سبعة وثامنهم كلبهم -عذرًا نحاول أن نرضي كل الأطراف-:

- بعض العلماء يقولون: هذه الواو تسمى واو الثمانية، وأن هذه لم تأتِ في القرآن إلا -أظن- في أربعة مواطن: هنا وآية الزمر ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزمر ٧٣] مع الجنة، و﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم ٥]، وفي آية التوبة ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾.. وفي النهاية ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[التوبة ١١٢] وقالوا إن هذه الواو تأتي في الصفة الثامنة، سواء مع عدد أو الصفة رقم ثمانية. فقيل له: ماذا عن الجنة؟ فقال: إن أبواب الجنة ثمانية.
- كثير من النحاة قال: لا، إن هذا قول ضعفة النحاة، وأول من ذكر هذا قول ابن خالويه وردوا هذا القول وأنه لا وجود لشيء يسمى واو الثمانية.

لماذا أذكر لكم ذلك؟ لأن البعض يحب ذكر هذا القول في اللطائف، فإذا رأيتم من أنكر عليه فهناك بالفعل الأكثرية ممن أنكروا على هذا القول. لكن هناك من العلماء من ذكر أن واو الثمانية حينما جاءت، -منهم ابن عاشور- شعر بأن فيها معنى، حيث أنه من الغريب وجودها عند الأربعة مواطن فلذلك في كل موضع منها إشارة، أما عن ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم ٥] قالوا إنها لو جاءت من الأصل بغير واو سيكون فيها نوع من التناقض.

علي كل حال لا نريد أن ننشغل بعددهم؛ حيث يروى عن ابن عباس قال: كما قال ربنا: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[الكهف ٢٢] قال: وأنا من القليل، فنحن لا نعلم عددهم وسيظل الخلاف قائمًا؛ لذلك نجد في الختام ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ﴾، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف ١٩]، ﴿رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف ٢٢]

قال المفسرون كلامًا جميلًا للغاية في ﴿مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ -لكن للأسف داهمنا الوقت- منها قولهم: أن يكون سهلًا لينا، القاسمي كذلك له كلام جميل في هذا الموضع.

* هناك قضايا لا يصح أن تأخذ منّا حجمًا كبيرًا من النقاش، بل أريد أن أقول لكم -للأسف- هناك قضايا أُقحمت في العقيدة، قضايا كلامية فيها نقاش يمتد لمجلدات وهي كلها ظنون من الأصل! وكنت قد وضحت ذلك في درس "القرآن والأسئلة الخاطئة". هناك قضايا تأخذ نقاشات ونقاشات فلسفية وأعمار وهي "مراء ظاهر" يكفيك فيها نقاش سطحي؛ لأنك بالفعل مهما تعمقت فيها لن تصل إلى شيء! ليس لديك أدوات، لا تملك معلومات، وسيظل الأمر فيها غيبي. فهنا ربنا يقول له هناك قضايا.. تُعلِّم نفسك كيف تتعامل مع الوقت ومع الحياة، التعامل الصحيح. ﴿مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ لا تطل النقاش معهم، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[الكهف ٢٢] أنت تمتلك المصدر معك.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا * وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف ٢٢-٢٤]، كثير من العلماء ربط هذه الآية بسبب النزول، وبعض العلماء قال إن سبب النزول فيه ضعف؛ لأن الرواية عن ابن إسحاق وغيره، وفيها أنهم جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وسألوه عن أسئلة؛ فقال النبي: سأجيبكم، ولم يقل إن شاء الله؛ فنزلت الآيات تعلم، ونوع من التربية الربانية للنبي -صلى الله عليه وسلم- ألا يعطي للناس وعدًا إلا أن يقول: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. فنوع من التأدب في العلاقة بالله -سبحانه وتعالى-، وكان للجاحظ كلامًا جميلًا في كلمة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، وهي ألا ينسى الإنسان أنه عبد، أظن نص الكلام يقول: "حتى لا يقف مقام التألي" أنت لست الإله؛ فيجب دائمًا أن تقول: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، لكي تتذكر دائمًا أنك مقهور، وأنك عبد، وفي أي لحظة قد يحصل شيء يقطع أمانيك، بل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال ٢٤] فسخ العزائم.

والجميل هنا هو ما قيل حول معنى رائع في علاقة النبي -صلي الله عليه وسلم- بربنا؛ وهو أن العتاب جاء بعدما ذكر له ربنا القصة، بعدما أخبره الله وعرَّفه بالقصة، ولكن بما يحمل معنى التلطف، مثلما أجيبك علي تساؤلك ثم أعقب بقول: ولكن كان من الأولى أن تفعل كذا.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف ٢٣-٢٤]. وهناك كذلك خلاف طويل في الآية، وهل هذه في الاستثناء في الأقسام والأيمان؟ والذي حلف بالله لو استثنى بعد مدة.. وخلاف فقهي هنا، والراجح؛ لا، يجب أن يكون الاستثناء يكون متصلًا باليمين. والمسائل التي فيها نقاشات طويلة وتحتاج إلى نوع من الاستزادة أُحيل عليها، والذي يجد ضيقًا من الإحالة لا يعبأ بذكرها، هذه ليست من صلب ما أريد أن أقدمه، هي لمن أراد الاستزادة فيرجع إليها.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الكهف ٢٤] فيها خلاف طويل، على ماذا يعود هذا الاستثناء؟ هل لا تقولن لشيءٍ إلا أن تقول إن شاء الله؟ أم المقصود لا بد أن تعلم أن كل شيءٍ بمشيئة الله -سبحانه وتعالى- وكما قلت لكم راجعوا كتب التفاسير. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[الكهف ٢٤] كذلك هل تعني إذا نسيت شيئًا ما فعليّ أن أذكر الله لكي أتذكر -التبرك باسم الله-؟ أم تعني إذا نسيت أن أقول إن شاء الله، أقولها ولو بعد مدة؟ هناك من قال ذلك، لكن لا تؤثر في اليمين، لا تؤثر في القسم، هي تبرك.

عذرًا أني أسرع في آخر المجلس، لكن هذه الآية أريد منكم التركيز فيها بعض الشيء، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ فيها أقوال كثيرة، وقلّ من تعرض إليها في التفاسير، من الممكن أن تجد تفسيرًا استفاض فيها وتفسيرًا آخر لم يورد لها معنى من الأساس.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ بحثت عنها في تفاسير كثيرة جدًا، أجمل من تكلم فيها ابن جُزَيّ وتفسير متأخر فيه تصوف لكن فيه بعض الفوائد أي يحتاج لطالب علم لكي يقرأ فيه.. تفسير ابن عجيبة، وابن كثير أشار لمعنى لطيف، ما هو معنى الآية؟ ماذا تعني ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾؟

في البداية ماذا تعني ﴿هَٰذَا﴾؟ كيف نفهم معنى الآية ؟ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ ربنا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم- قل لهم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى﴾.. لفظ الهداية والرشاد من صلب السورة؛ فنريد أن نفهم الآية ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾، كلمة "هذا" هي شيء من ثلاثة: هذا: المنسيّ، أو هذا: قصة أصحاب الكهف، أو هذا: هدى أصحاب الكهف.

وتعالوا الآن لنفصل:

١- لو قلنا: المنسي؛ واذكر ربك إذا نسيت عسى أن يهديك لأمرٍ أعظم مما نسيته؛ فيكون في النسيان الخير.

أحيانًا يكون النسيان فيه خير، هذا المعنى يحتاج أن تنساه والأفضل أن تنساه، أو سيأتي الله -سبحانه وتعالى- بخيرٍ منه، أو لتتذكر أنك عبد وأنك مقهور وأنك لا تتحكم في ذاكرتك، كما قال ربنا: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[الكهف ١٤] أنت لا تتحكم في قلبك.

للأسف نسيت أن أستفيض في معنى الربط على القلب، عندما تكون خائفًا من شيء لا تستطيع أن تقول لقلبك لا تخف، قلبك ينبض، ولا تستطيع التحكم في مشاعرك، قلبي أنا ومشاعري ولكن لا أستطيع التحكم فيها، فالله -سبحانه وتعالى- هو الذي يربط على القلوب، فكذلك الذاكرة بيد الله، دائمًا تذكر الله إذا نسيت عسى أن يمن عليك بعد النسيان لأقرب مما نسيته، لأقرب من المنسيّ هذا رشدًا.

٢- القول الثاني: وهذا الأشهر الذي ذكره كثير من المفسرين، -وأول من ذكره أظن الزجاج- قال إنهم عندما ذهبوا ليسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- لماذا سألوه عن أصحاب الكهف؟ لماذا ذهب المشركون ليقيموا اختبارًا للنبي -صلى الله عليه وسلم-؟ لكي يعرفوا هل هو نبي أم لا، إذا عَلِمَ القصة يكون نبيًا، لو لم يعرفها -بالنسبة لهم- لن يكون نبيًا. فيقول لهم: سيعطيني الله ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾[الكهف ٢٤]. قلنا إن المعنى الثاني: قصة أصحاب الكهف، سيعطيني الله -سبحانه وتعالى- قصصًا كثيرة أفضل من قصة أصحاب الكهف تكون دليلًا على نبوتي، وسيعطيني الله -سبحانه وتعالى- آيات كثيرة أقرب وأفضل من قصة أصحاب الكهف لتكون دليلًا على نُبوّتي. وبالفعل قد أعطاه الله ذلك، وأعطاه كثيرًا من قصص الأنبياء، وأعطاه القرآن المدني الذي يبين لهم كثيرًا مما يخفون -أهل الكتاب-. وقيل إن اليهود أو النصارى بالطبع هم الذين أرسلوا المشركين ليسألوا.

إذًا المعنى فسيعطيني من الآيات التي تبين أن معي الحق، هذا هو المعنى الثاني.

إذًا القول الأول: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ المنسي، والقول الثاني: قصة أصحاب الكهف، سيعطيني الله -سبحانه وتعالى- إن شاء الله، و"عسى" بإذن الله -سبحانه وتعالى- تكون واجبة،

سيعطيني الله -سبحانه وتعالى- من الآيات ومن القصص أقرب من هذا رشدًا، أي: سيكون مرشدًا إلى أنني نبي وإلى الطريق الصحيح أقرب من هذا.

٣-القول الثالث: ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا﴾ بمعنى كما أن الله هدى أصحاب الكهف ووفقهم، سيهديني الله -سبحانه وتعالى- هدى أعظم من هدى أصحاب الكهف، لأقرب من هذا الهدى، وأعطاه الله ذلك، ومنّ الله -سبحانه وتعالى- عليه وفُتحت له الآفاق -صلى الله عليه وسلم- ﴿عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾[الكهف ٢٥] كذلك قول الله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾[الكهف ٢٦] مازال التكرار، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾[الكهف ١٩]، ﴿رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ [الكهف ٢٢]، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾[الكهف ٢٦] علم الله خصوصًا في الأحداث التاريخية الماضية، ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[النساء ١٦٤] أحداث لا يعلمها إلا الله.

لذلك بعض المفسرين -وأول من روي عنه ذلك أظن الإمام قتادة رضي الله عنه- قال إن كلمة ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾[الكهف ٢٥] هذا من قول أهل الكتاب، هذا من تنازعهم، أنهم يتنازعون في أعدادهم ويمارون ويجادلون في المدة، فمعنى الآية -على هذا القول عند قتادة-: وقال أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعًا، فقل لهم يا رسول الله -ولا تنشغل بالمدة-: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾[الكهف ٢٦]، هذا قول.

وهذا القول ضعفه -أظن الطبري وابن كثير-، وقالوا هو منقطع الأثر عن قتادة، وأن ذلك من قول الله -سبحانه وتعالى-. حسنًا، لو كان من قول الله كيف يكون فيها تردد؟ كيف ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا؟ هم كانوا مترددين -أهل الكتاب- فربنا يقول لا تنشغلوا بالعدد.

إذًا عندنا القول الذي يذكر أن هذا من أهل الكتاب وأن هذا من ترددهم، وقول آخر: بل هذا من كلام ربنا -سبحانه وتعالى-، وهذا من الإعجاز. كيف يكون ذلك؟

قالوا ثلاث مائة -كما هو المشهور عند الناس- ثلاثمائة بالسنين الشمسية وازدادوا تسعًا بالقمرية؛ لأن كل مائة سنة شمسية تزيد ما يقارب من ثلاث سنوات قمرية، إذًا ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا.

وبعض المفسرين قال: لا، لقد قمنا بحسابها ولم تكن تسعة بالتحديد، ولكننا نعلم أن القرآن **أغلبي**، وهذا حتى من المعروف في لغة العرب، فمن الممكن أن يقول إن بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- مثلًا وبقاءه في مكة عشر سنين وفي المدينة عشر سنين، يقول عشرين والمقصد ثلاثة وعشرون، وهذا معروف عند العرب لا يجب أن يكون الكسر في قمة الدقة، القرآن ليس كتابًا هندسيًا. أيًّا كان فالخلاف موجود.

وكما قلت لكم إنه من كلام الله -سبحانه وتعالى-، قال الحكمة أنها شمسية وزيادة بالقمرية، حيث أنهم يتعاملون بسنوات والعرب يتعاملون بسنوات أخرى فالإجابة جاءت للطرفين، أو أنها من كلام أهل الكتاب ورد الله عليهم، وأنا مائل لقول أنه ليس من كلام أهل الكتاب -والله أعلى وأعلم- لكن الأقوال مذكورة.

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا * قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾[الكهف ٢٥-٢٦]، اقرأوا القصة وأنتم تبحثون عن الكلام عن الله، هنا ستجد.. بل ستُفاجأ أن الكلام عن الله يملأ القصة؛ في أول القصة، في منتصف القصة، في آخر القصة، خواتيم القصة ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هنا أسلوب تعجب، ما أبصره! وما أسمعه -سبحانه وتعالى! الله يبصر كل شيء، الله أبْصَر أصحاب الكهف حينما خرجوا، وسمع كلامهم في الكهف حينما تكلموا، الله -سبحانه وتعالى- كان معهم برحمته وبلطفه، الله -سبحانه وتعالى- هو يعلم متى قاموا ومدة نومهم وكيف قاموا ومدة بعثهم، الله -سبحانه وتعالى- يعلم كل هذه التفاصيل.

لذلك من أول مقاصد القصة التي جاءت في المجمل ﴿لِنَعْلَمَ﴾ العلم، ﴿أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾[الكهف ١٢] العلم بالتفاصيل، أي من فوائد القصة التي جاءت في المجملات: أن الله يعلم تفاصيل الأحداث -سبحانه وتعالى-، هو الذي يُقدِّرها، الذي ﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ بتفاصيلها ﴿مَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[الأنعام ٥٩] -سبحانه وتعالى-، فكما يعلم المجملات يعلم التفاصيل. ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾[الكهف ٢٦].

وبعد ذلك جاءت ثلاثة أوامر كتعقيب وكختام لقصة أصحاب الكهف، قلنا إنه جاءت قصة ثم فواصل ثم جاءت قصة صاحب الجنتين. قبل قصة صاحب الجنتين جاءت ثلاثة أوامر:

١- ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾[الكهف ٢٧].

٢- ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾[الكهف ٢٨].

٣- ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[الكهف ٢٩].

وبعد ذلك جاء العذاب والنعيم، وبعد ذلك قصة صاحب الجنتين. ما علاقة هذه الأوامر بهذه القصة؟ هذا ما سنعلمه في الحلقة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. وجزاكم الله خيرًا.